التفسير الإشاري وأهم كتبه

Allegorical Exegesis and Its Important Books

الدكتور الحافظ عبدالرحيم*

السيد مقيل حسين **

Abstract

This article is about Tafseer ul ishaari and the Important books narrated in it. This article is about Sufism and it tells about nature, origin and evolution of Sufism. It also tells about different kinds of Sufism and about the kinds of Sufism discussed in Tafseer ul ishaari.

The Difference between Tafseer e Sufi and Tasfeer ul ishaari has also been narrated in this article. Examples of Tasfeer ul Ishaari have been given from Quran and Hadith. Scholars' opinion and their differences regarding Tasfeer ul ishaari have also been discussed in it. Opinion of Ibn us Sulah , Al-Shatibi, Al-Zarqani, Al-zarkashi, Ibn ul Arabi and As-Siyouti has been included. Five conditions under which Tasfeer ul ishaari is acceptable, have also been narrated here.

Important Books written about Tafseer ul ishaari have also been discussed briefly. Old Mufassireen have devided Tafseer ul ishaari into 5 main kinds and Ishaari Tafaseer are within these 5 kinds. Famous Tafaseer ul Ishaari that have been discussed in the article are : "Tafseer ul Quraan lil-Tastari ","Tafseer il Iloosi ", "Haqaiq e Tafseer" by Al-Silmi "Tafseer e Ibn ul Arabi","Araesul Bayan fi Haqaequl Quran" by Roz Bahan al-Biqli Ash-Sherazi and "Tafseer ul Nisaburi".

Some other Mufassareen have also written Important exegeses on this topic but only their names have been given in this article. Such books include "Lataefil ishaarat " by Qasheeri , "At-Taveelat in Najamiyah" by Najmuddin Kubra and "Bahr ul Haqaeq wal Ma'ani fi Tafseer al Sabáa Al-Masani" by Najmuddin Dayah.

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصى نعمائه العادون والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأشرف الأولين والآخرين . أما بعد !

---

* الأستاذ بقسم اللغة العربية بجامعة بهاءالدين زكريا ملتان، باكستان.

** طالب الدكتوراة في اللغة العربية بجامعة بهاءالدين زكريا، ملتان، باكستان.

إن القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخاً في الإعجاز، أنزله الله على رسولنا محمد صل الله عليه وآله وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم،ومن اتبعه هداه إلى الله ومن اتبع غيره أضله الله،فقال تعالى:﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[1]و قال تعالى:﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِاتَّبَعَرِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[2] القرآن الكريم هو الكنزالثمين وأساس الدين أودع الله سبحانه وتعالى فيه علم كل شيء،وقد قال سيدنا الإمام علي ابن أبي طالب:"القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه"[3] وعن ابن مسعود:"إذا أردتم العلم فانثروا القرآن،فإن فيه علم الأولين والآخرين"[4].

قبل أن نذكرحول تفسيرالإشاري وأهم كتبه يطيب لنا أن نعطي لمحة سريعة عن نشأة التصوف.

أولاً:ما هو التصوف

معنى التصوف: فقيل: "هو إرسال النفس مع الله على ما يريده".

وقيل: "هو مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفي هذه المناجاة طَهرة لمن شاء أن يتطهر، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرِجس والدنس، وفي تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة، وصعود إلى عالَم الفيض والإلهام ، وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل، والنظر، والتدبر في ملكوت السموات والأرض.

بَيْد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر. فمَن شاء لنفسه صفاءً ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن،فالتصوف إذن: فكر، وعمل، ودراسة، وسلوك"[5].

ثانياً:نشأة التصوف وتطوره

أماالتصوف بهذا المعنى المذكورة موجود منذ الصدر الأول للإسلام، فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف، مبالغين فى العبادة، فكان منهم مَن يقوم الليل ويصوم النهار، ومنهم مَن يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيباً لروحه، غير أنهم لم يُعرفوا في زمنهم باسم الصوفية، وإنما اشتهر بهذاللقب فيما بعد مَن عُرفوا بالزهد والتفانى في طاعة الله تعالى، وكان هذا الاشتهار في القرن الثانى الهجرى، وأول من سُمِّى بالصوفى: أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ .

وفي هذا القرن وما بعده تولَّدت بعض الأبحاث الصوفية، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها. وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العلمى الذي يعيشون فيه تطورت هذه الأبحاث والنظريات.

ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر في هذا التطور الصوفى، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل وكوَّنوا فلسفة خاصة بهم، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السُّنَّة، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى، ويؤيدون التصوف الذي يدور حول الزهد، والتقشف، وتربية النفس، وإصلاحها،وما زال أهل السُّنَّة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه في نهاية القرن السابع الهجرى.

ومن ذلك الوقت دخل في التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة، وتحلَّوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأُميين يشرفون على الطريق، ويتولون تربية الأتباع والمريدين، ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة، هي دائرة الأوراد والأذكار، وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة في الفقه والتفسير والحديث[٦].

بهذا التعريف مما قد سبق يتضح لنا أن التصوف على قسمين:

القسم الأول تصوف نظري: وهو التصوف الذي يقوم على البحث والدراسة.

القسم ثاني تصوف عملى:وهو التصوف الذي يقوم على التقشف والزهد والتفانى في طاعة الله.وكل من القسمين كان له أثره في تفسير القرآن الكريم، مما جعل التفسير الصوفى ينقسم أيضاً إلى قسمين: تفسير صوفي نظري، وتفسير صوفي فيضي أو إشاري[٧].

التفسير الإشاري

التفسير الفيضي أو الإشاري: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظاهر المرادة[٨].

قال الزرقاني:التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن بغيرظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهرالمراد أيضاً [٩].

وقال الصابوني: التفسيرالإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أوتظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس، ممن نور الله بصائرهمفأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطةالإلهام الإلهي أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة [١٠].

الفرق بين التفسير الصوفي الإشاري والتفسير الصوفي النظري من وجهين:

الوجه أول: أن التفسير الصوفي النظري ينبنى على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولاً، ثم يُنزل القرآن عليها بعد ذلك.

أما التفسير الإشارى: فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل على قلبه من سُحُب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

الوجه ثاني: أن التفسير الصوفي النظري يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعانى، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تُحمل الآية عليه .

أما التفسير الإشاري فلا يرى الصوفي أنه كل ما يُراد من الآية، بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويُراد منها أولاً وقبل كل شيء، وذلك هو المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره(١١).

يعني التفسير الإشاري هو الذي تئوول به الآيات على غير ظاهرها مع محاولة الجمع بين المعنى الظاهر والمعنى الخفى.

ويعتمد على الرياضة الروحية يأخذبها الصوفي نفسه إلى أن يصل إلى مرحلة ينكشف له فيها ما تحمله الآيات من المعارف والإشارات واللطائف والأسرار، إذا كان ذلك استنباط حسنا يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض فإنه يكون مقبولا.

هناك مصطلحات استخدمها أصحاب التفسير الإشاري بوفرة في كتبهم وهي:"قال أهل الإشارات" و"قال أهل المعرفة" و"أهل التحقيق"و"قال أرباب السلوك".ومثل هذه المصطلحات تكثر في تفسير لطائف الإشارات للإمام القشيري المتوفي سنة ٤٦٥ هـ. وفي تفسير حدائق الحقائق للعلامة معين الدين الفراهي الهروي المعروف" بملا مسكين"م٩٠٨ هـ، وفي تفسيركشف الأسرار وعدة الأبرار لرشيد الذين أبي الفضل المبيدي.

فالمفسرون من علماء الشريعة وقفوا عند ظاهر اللفظ وما دل عليه الكلام من الأمر والنهى،والقصص والأخبار والتوحيد ونحو ذلك.

وأهل التحقيق أو الصوفية يقرون تفسيرهم هذا ويرونه الأصل الذي نزل فيه القرآن، ولكن لهم في كلام الله مع الأخذ بهذا التفسير الظاهري مذاقات يمكنهم إغفالها، لأنها بمثابة واردات أو هواتفمن الحق لهم.

من هنا مذاقات الصوفية وأهل الإشارات في القرآن الكريم وفهم مراده وهم لا يرون أن تلك المذقات وحدها هي المرادة، وأنها يأخذونها إشارات من الله لهم بعد إقرار ما قاله أهل الظاهر من تفسير باعتبارهم أهل التشريع على أن تلك الإشارات أمرمشروع أقره الحديث:"إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلقبا"[١٢].

أمثلة للتفسيرالإشاري من كلام الله سبحانه وتعالى

أما إشارة القرآن إليه،ففى قوله تعالى:﴿لينفق ذو سعة من سعته...﴾[١٣]فالآية في نفقة الزوجة، لكن أرباب السلوك يرون فيها إشارة إلى أن الواصل يرشد إلى الله على قدر ما وهبه الله من المعرفة، والسالك يرشد أيضا لكن على قدره، قال: ابنعطاء الله في الحكم ﴿لينفق ذو سعة من سعته...﴾ [١٤] الواصلون إليه ﴿ومن قدر عليه رزقه...﴾ [١٥]السائرون إليه.

وقوله تعالى:﴿إنماالصدقات للفقراء والمساكين﴾[١٦]فالآية في مصارف الزكاة ،لكن أرباب السلوك يرون فيهاإشارة إلى أن مواهب الله على القلوب لا تكون إلا بتحقيق الفقر والمسكنة لله تعالى. إقطع عنك المادة وافتقر إلى الله تفيض عليك المواهب منالله ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك[١٧].

كذلك قوله تعالى في سورة النساء :﴿فَمَالِ هاؤلاء القوم لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[١٨]وقوله في الآية:﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً﴾[١٩]، وقوله في سورة محمد: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٢٠]، فهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وبطن. وذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً، ويحضهم على التدبر في آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم على فهم ظاهره، لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شكّ. وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضَّهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم[٢١].

أمثله من الحديث النبوي

أما إشارة في الأحاديث التي نبه فيها النبي صل الله عليه وآله وسلم الذي أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع"، وفي الحديث الذي أخرجه الديلمى من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "القرآن تحت العرش، له ظهر وبطن يُحاج العباد"[٢٢].

ففى هذان الحديثان تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن. ولكن ما هو الظهر وما هو البطن؟ اختلف العلماء فى بيان ذلك:

فقيل: ظاهرالآية لفظها،وباطنها تأويلها.

وقال أبو عبيدة: إن القَصص التى قصَّها الله تعالى عن الأُمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأوَّلين، وحديث حَدَّث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حلَّ بهم.. ولكن هذا خاص بالقَصص، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن.

وحكى ابن النقيب قولاً ثالثا: وهو أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أهل الحقائق.

هذا هو أشهر ما قيل فى معنى الظهر والبطن[٢٣].

وأما قوله فى الحديث الأول: "ولكل حرف حد"، فمعناه على ما قيل: لكل حرف حد، أي منتهى فيما أراد الله من معناه، أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب. والأول أظهر، وقوله: "ولكل حد مطلع"، معناه على ما قيل أيضاً: لكل غامض من المعانى والأحكام مطلع يُتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به. وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه في الآخرة عند المجازاة، والأول أظهر[٢٤].

آراء العلماء في التفسير الإشاري

اختلف العلماء في التفسير الإشاري، وتباينت فيه أراؤهم فمنهم من أجازه ومنهم من منعه، ومنهم من عده من كمال الإيمان ومحض العرفان، ومنهم من اعتبره زيغاوضلالا وانحرافا عن دين الله تبارك وتعالى،والواقع أن الموضوع دقيق يحتاج إلى بصيرة وروية ونظرة إلى أعماق الحقيقة،وأن كلامه تعالى وضعت فيه مفاهيم وأسرار ودقائق وعجائب لا تنقضي على مدار الأزمان، ويتوالى إعجازه مرة بعد أخرى، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان،ويمكن أن نعرض أهم آراء العلماء التي نسترشد بها في تحديد شروط قبول التفسير الإشاري، فمن ذلك:

١- رأى ابن الصلاح

مسألة: سأل سائل في كلام الصوفية في القرآن كالجنيد وغيره وكان السائل عن هذا ينكر ما سمع من ذلك وكان يجالس شيخا من المفتين فجرى ذلك في مجلسه فابتدأ الشيخ وقال كالمستحسن لكلام الصوفية: هم لا يريدون به تفسير القرآن وإنماهي معاني يجدونها عند التلاوة.

وقال أيضا يقولون:﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلواالذين يلونكم من الكفار﴾[٢٥] قالوا: هي النفس، وكان الشيخ المفتي يشرح ذلك ويقول: أمرنا بقتال من يلينا لأنهمأقرب شرا إلينا وأقرب شرا إلى الإنسان نفسه.

وقال الشيخ أيضا: يقولون: ﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه﴾[٢٦] يقول نوح العقل والغرض أنهم يلقي الله عندهم في كلامه ما ينتفعون به وهذا قد صدر عن أكابرهم والجم الغفير وأنتم بذلكأعلم والسائل لهذا ليس بجاهل وليس غرضه إلا الاعتضاد بما يسمع من الشيخ تقي الدين واحد لا يجهل أن قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾[٢٧] ليسالمراد به النفس وإن المراد ظاهر ومن قال غير ذاك فهو مخطئ.

فأجاب: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسرأنه قال: صنف أبو عبدالرحمن السلمي حقائق التفسير فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفروأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئا من أمثال ذلك أنه لم يذكر تفسيرا ولا ذهببه مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكو امسالك الباطنية.وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، فمن ذكر قتال النفس في الآية المذكورة فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار, ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس[٢٨].

٢- رأى الشاطبي

يقسم الشاطبي الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الطاهرة وأصحاب البصائر إذا صحت على كمال شروطها على ضربين:

أحدهما:ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح فى الجملة هو الذى يخرق نور البصيرة فيه حُجُب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل، حسبتما بيَّنه أهل التحقيق بالسلوك.

ثانيهما: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات: جزئيها أو كليها، ويتبعه الاعتبار فى القرآن.

فإن كان الأول فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر فى فهم باطن القرآن من غير أشكال، لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلَّفين، وبحسب التكاليف وأحوالها، لا بإطلاق، وإذا كانت كذلك فالمشى على طريقها مشى على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآني ما يجده إلا مَن كان من أهله عملاً به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازى

أحكامه، ويلزمه من ذلك أن يكون معتداً به لجريانه على مجاريه. والشاهد على ذلك ما نُقل من فهم السَلَف الصالح فيه، فإنه كله جار على ما تقضى به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية.

وإن كان الثاني فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره في فهم القرآن[٢٩].

٣- رأي محمد عبد العظيم الزرقاني

يرى الزرقاني أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر، فدخل في روعهم أن الكتاب والسنة بل والإسلام كله ما هو إلا سوانح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات، وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخييلات، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح، فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب الله وسنة رسوله والأدهي من ذلك أنهم يتخيلون ويخيلون للناس أنهم هم أهل الحقيقة، الذين أدركوا الغاية واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ما دموا في زعمهم مع ربالأرباب، وهذا لعمر الله هو المصاب العظيم الذي عمل له الباطنية، كيمايهدمواالتشريع من أصوله ويأتوا بنيانه من قواعده، فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشير عليهم أن ينفضوا من أمثالتلك التفاسير الإشارية الملتوية، لإنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط والتقييد، وكثيرا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل فالأخرى بالفطن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق وأن يفر بدينه من هذه الشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات[٣٠].

٤- رأي محمد عبد الله الزركشي

فأما كلامالصوفية في تفسير القرآن؛ فقيل: ليس تفسيرا، وإنما هي معان ومواجيد يجدونها عندالتلاوة كقول بعضهم في:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾[٣١]إن المراد النفس، فأمرنا بقتال من يلينا، لأنها أقرب شيء إلينا وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه[٣٢].

٥- رأي ابن عربي

قال ابن عربي:"اعلم أن الله عَزَّ وجَلَّ لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطواراً، فمنا العالم والجاهل، ومنا المنصف والمعاند، ومنا القاهر ومنا المقهور، ومنا الحاكم ومنا المحكوم، ومنا المتحكِم ومنا المتحكَم فيه، ومنا الرئيس والمرؤوس، ومنا الأمير والمأمور، ومنا الملك والسوقة، ومنا الحاسد والمحسود، وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق

الوهب الإلهى الذى منحهم أسراره في خلقه، وفهَّمهم معنى كتابه وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام. لما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم عدل أصحابنا إلى الإشارات. فكلامهم في شرح كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيراً لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلى نفسهم مع تقريرهم إياه فى العموم، وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللِّسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعمَّ به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ﴾[٣٣] يعنى الآيات المنزَّلةفي الآفاق وفي أنفسهم، فكل آية منزَّلة لها وجهان: وجه يرونه فى نفوسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولا يقولون في ذلك إنه تفسير، وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق، واقتدوا في ذلك بسنن الهدى، فإن اللهكان قادراً على تنصيص ما تأوَّله أهل الله في كتابه، ومع ذلك فما فعل: بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامة علوم معانى الاختصاص التى فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذى رزقهم..."[٣٤].

٦- رأي الأستاذ محمد حسين الذهبي على مقالة ابن عربى

ونحن لا ننكر على ابن عربى أن ثَمَّ أفهاماً يُلقيها الله في قلوب أصفيائه وأحبابه، ويخصُهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا نُنكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيراً للقرآن وبياناً لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللَّفظ العربى القرآني، وأن يكون لها شاهد يؤيدها، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللَّفظ القرآني، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى، لأن القرآن عربى قبل كل شيء كما قلنا، والله سبحانه وتعالى يقول في شأنه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣٥].وحاشا لله أن يُلغز في آياته،أو يُعمى على عباده طريق النظر فى كتابه، وهو يقول:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٣٦]،[٣٧].

٦- رأي السيوطي

سئل شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني عن رجل قال في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٣٨] إن معناه: من ذلّ؛ أي: من الذل. ذي: إشارة إلى النفس، يشفَ: من الشفا جواب (مَنْ). غْ: أمر من الوعي، فأفتى بأنه ملحد .

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[٣٩] قال ابن عباس: هو أن يوضع الكلام على غير موضعه[٤٠].

شروط قبول التفسير الإشاري

يعلم فيما سبق أن التفسير الإشاري لا يكون مقبولا إلا بشروط خمسة وهي:

١- ألا يتنافي وما يظهر من معنى النظم الكريم.

٢- ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر.

٣- ألا يكون تأويلا بعيدا سخيفا كتفسير بعضهم قوله تعالى:﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤١] بجعل كلمة ﴿لَمَعَ﴾ ماضيا وكلمة ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مفعوله.

٤- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

٥- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

كذلك اشترطوا بيد أن هذه الشروط متداخلة فيمكن الاستغناء بالأول عن الثالث وبالخامس عن الرابع ويحسن ملاحظة شرطين بدلهما أحدهما بيان المعنى الموضوع له اللفظ الكريم أولا ثانيهما ألا يكون من وراء هذا التفسير الإشاري تشويش على المفسر له وسيأتيك في نصيحتي وفي كلام الغزالي ما يقرر هذين الشرطين.

ثم إن هذه شروط لقبوله بمعنى عدم رفضه فحسب وليست شروطا لوجوب اتباعه والأخذ به ذلك لأنه لا يتنافى وظاهر القرآن ثم إن له شاهدا يعضده من الشرع وكل ما كان كذلك لا يرفض وإنما لم يجب الأخذ به لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه بل هو من قبيل الإلهامات التي تلوح لأصحابها غير منضبطة بلغة ولا مقيدة بقوانين[٤٢].

هذه هي الشروط التي إذا توفرت في التفسير الإشاري كان مقبولاً، ومعنى كونه مقبولاً عدم رفضه لا وجوب الأخذ به، أما عدم رفضه فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية.

وأما عدم وجوب الأخذ به، فلأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان، وإنما هي أمر يجده الصوفي من نفسه، وسر بينه وبين ربه. فله أن يأخذ به ويعمل على مقتضاه، دون أن يُلزم به أحداً من الناس سواه[٤٣].

نبذة من أهم كتب التفسير الإشاري

انقسم المفسرون السابقون في تفاسيرهم من ناحية التفسير الإشاري إلى أقسام خمسة:

الأول: من أعرض كل الإعراض عن هذا اللون من التفسير ولا تجد له فيه ذكرا، وأمثلة هذا النوع كثيرة.

الثاني: من التزم في أكثر تفسيره التفسير بالظاهر مع إشارات قليلة إلى التفسير الإشاري،ومثاله تفسير النيسابوري.

الثالث: من جعل غالب همه في التفسير الإشاري، لكن يضيف إليه بقلة التفسير الظاهر، كتفسير سهل التستري.

الرابع: من جعل همه كله في التفسير الإشاري ولا يشير مطلقا إلى التفسير الظاهر، كتفسير أبي عبد الرحمن السلمي.

الخامس: من جمع بين التفسير الإشاري والتفسير الصوفي النظري مع الإعراض كل الإعراض عن التفسير بالظاهر، وذلك كتفسير ابن عربي.

هذه أقسام خمسة كان المفسرون عليها قديما, وإذا عدت إلى الحاضر لم تكد تجد أحدا من الأنواع الثلاثة الأخيرة، على حد علمي. أما اللون الأول فهو الموجود وبكثرة، وأما اللون الثاني فموجود ولكن أقل كثرة من سابقه[٤٤].

نشير هنا إلى بعض التفاسير الإشارية المعروفة

١- تفسير القرآن العظيم للتستري

هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفي سنة ٣٨٣ ثلاث وثمانين وثلثمائة وتفسيره هذا لم يستوعب كل الآيات وإن استوعب السور وقد سلك في مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر وإليك نموذجا منه إذ يقول في تفسير البسملة:

"الباء بهاء الله عز وجل والسين سناء الله عز وجل والميم مجد الله عز وجل والله هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها وبين الألف واللاممنه حرف مكنى غيب إلى غيب وسر من سر إلى سر وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان.

والرحمن اسم فيه خاصة من الحرف المكنى بين الألف واللام والرحيم هو العاطف على عباده بالرزق في الفرع والابتداء في الأصل رحمة لسابق علمه القديم قال أبو بكر أي بنسيم روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة لأنه رحيم وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الرحمن الرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر فنفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده" .

ومن تفسيره بما هو قريب من المعنى الظاهر قوله في تفسير الآية الكريمة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[٤٥]حيث يقول:أفكان شاكا في إيمانه حتى سأل ربه أن يريه آية معجزة ليصح معها إيمانه فقال سهل لم يكن سؤاله ذلك عن شك وإنما كان طالبا زيادة اليقين يقينا في قدرة الله وتمكينا في خلقه ألا تراه كيف قال:﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾[٤٦] فلو كان شاكا لم يجب ببلى ولو علم الله منه الشك وهو أخبر ببلى وستر الشك لكشف الله ذلك إذ كان مثله مما لا يخفى.

وهذا الكتاب صغير الحجم غير أنه غزير المادة في موضوعه مشتمل على كثير من علاج الشبهات ودفع الإشكالات يقع في نحو من ٣١٤ أربع عشرة وثلاثمائة صفحة وهو مطبوع بمصر[٤٧].

٢- تفسير الألوسي

اسم تفسيره روح المعاني ومؤلفه العلامة المحقق شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي مفتي بغداد المتوفي سنة ١٢٧٠،وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة وألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة رحمه الله وتجاوز عنه.

ومما قاله في التفسير الإشاري بعد أن فسر قوله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[٤٨] إلى آخر الآيات بعدها قال ما نصه:

"ومن مقام الإشارة في الآيات وإذا قلتم يا موسى القلب لن نؤمن الإيمان الحقيقي حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان فأخذتكم صاعقة الموت الذي هو الفناء في التجلي الذاتي وأنتم تراقبون أو تشاهدون ثم بعثناكم بالحياة الحقيقة والبقاء بعد الفناء لكي تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك في الله عز وجل وظللنا عليكم غمام تجلي الصفات لكونها حجبت شمس الذات"الخ ما قال.

ويقول في موضع آخربعد تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤٩] خذوا ما ءاتينكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون قال ما نصه:

"وإذ أخذنا ميثاقكم المأخوذ بدلائل العقل بتوحيد الأفعال والصفات ورفعنا فوقكم طور الدماغ للتمكن من فهم المعاني وقبولها أو أشار سبحانه بالطور إلى موسى القلب وبرفعه إلى علوه واستيلائه في جو الإرشاد والشرائع لكي تتقوا الشرك والجهل والفسق ثم أعرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك فلولا حكمة الله بإمهاله وحكمه بإفضاله لعاجلتكم العقوبة ولحل بكم عظيم المصيبة.

إلى الله يدعى بالبراهين من أبى ... فإن لم يجب بادته بيض الصوارم

فهذه الإشارة إنما يعرفها ذو الوجد والمشاهدة وهي لأصحابها رياض يانعة وأنوار لامعة"[٥٠].

٣- حقائق التفسير

مؤلف هذا التفسيرهو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي (م٤١٢هـ). كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، له اليد الطولى في التصوف والعلم الغزيروالسير على سنن السَلَف.

وهذا التفسير في مجلد واحد كبير الحجم، ومنه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية.

ويقول الأستاذ الذهبي: قرأت في هذا التفسير، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن، ولكنه لا يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها ويُغضى عن بعضها الآخر، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، وإنما جرى في جميع ما كتبه على نمط واحد، وهو التفسير الإشاري،وهو إذ يقتصر على ذلك لا يعنى أن التفسير الظاهر غير مراد، لأنه يُصرِّح في مقدمة تفسيره: أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة فى كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر. وهذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلى بعض، ورتبها على حسب السور والآيات، وأهم مَن ينقل عنه السلمي في حقائقه: جعفر بن محمد الصادق، وابن عطاء الله السكندري، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التستري، وغيرهم كثير.

قال السلمي: "لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا فى أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نُسبت إلى أبى العباس ابن عطاء، وآيات ذُكِر أنها عن جعفر بن محمد، على غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم في ذلك حروفاً استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى، واستخرتُ الله في جمع شيء من ذلك، واستعنتُ به في ذلك وفي جميع أُموري، وهو حسبي ونعم المعين"[٥١].

طعن على هذا التفسير وعلى صاحبه كالجلال السيوطى، والحافظ الذهبي ، والسبكي،والواحدي،ويذكرالسيوطي في كتابه"طبقات المفسرين" أن صاحب حقائق التفسيرضمن من صَنَّف في التفسير من المبتدعة ويقول: "وإنما أوزدته فى هذا القسم لأن تفسيره غير محمود".

والحافظ الذهبي يقول عنه:"وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يُصَنِّفه. فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فسترى العجب".

ويقول السبكي "كتاب حقائق التفسير،كثر الكلام فيه من قِبَل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات، ومحال للصوفية ينبو عنها اللَّفظ".

وقال أبا الحسن الواحدى: "صَنَّف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر"[٥٢].

ويرد الأستاذ الذهبي على هذه الطعون قائلا: وإنَّ عَدَّ السيوطي السلمي في ضمن المفسِّرين من أهل البدع غلو منه وإجحاف.

وأما ما قاله الحافظ الذهبي من أن ما في الحقائق تحريف وقرمطة يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية فهذا غير صحيح، لأن الرجل يقر الظواهر على ظواهرها، والقرامطة بخلاف ذلك.

وأما قول السبكي من أن السلمى قد اقتصر في حقائقه على تأويلات للصوفية ينبو عنها اللَّفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

وأما قول الواحدى: إنه لو اعتقد أن ما فى الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا، فنقول فيه: إن أبا عبد الرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير، وإنما قال: إنه إشارات تخفي وتدق إلا على أربابها، كما صرَّح بذلك في مقدمة حقائق التفسير[٥٣].

نماذج من تفسير السلمي

ليسمع القاري بعض ما جاء فيه، ليحكم هو بدوره عليه.فأورد السلمي في تفسير قوله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقتلوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخرجوا مِن دِيَارِكُمْ مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[٥٤] قول محمد بن الفضل: ﴿اقتلوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها،﴿أَوِ اخرجوا مِن دِيَارِكُمْ﴾أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ في العدد، كثير في المعاني، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقَة"[٥٥].

وذكره في تفسيرعند قوله تعالى في سورة الحج﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً﴾[٥٦] قول بعضهم: أنزل مياه الرحمةَ من سحائب القُربة،وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرت بزينة المعرفةوأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد. أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع، ذاك آواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة في بساتين الأُنس، ورياض الشوق والقدس"[٥٧].

وأورد في تفسيرقوله تعالى:﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾[٥٨]قول:" الإمام جعفرصادق: جعل الحق تعالى في قلوب أوليائه رياض أُنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أُصولها ثابتة في

أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة في المشهد، فهم يجنون ثمار الأُنس في كل أوان، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ والنخل ذَاتُ الأكمام﴾ أي ذات الألوان، كل يجتنى منه لوناً علَى قدر سعته، وما كوشفت له من بوادى المعرفة وآثار الولاية"[٥٩].

٤– تفسير ابن عربي

هو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله محيي الدين بن عربي الحاتمي الصوفي الفقيه المحدث ولد بمرسية سنة ٥٦٠ ستين وخمسمائة وتوفي في دمشق سنة ٦٣٨ ثمان وثلاثين وستمائة.

وقد طبع تفسير ابن عربي في جزأين بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٨٧سبع وثمانين ومائتين بعد الالف يقول في خطبة كتابه:قد تذكرت خبرا قد أتاني فازدهاني مما وراء المقاصد والأماني قول النبي الأمي الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق: "ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع"[٦٠] وفهمت منه أن الظهر هو التفسير والبطن هو التأويل والحد ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام.

وقد نقل عن الإمام المحقق السابق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون. وروى عنه عليه السلام أنه خر مغشيا عليه وهو في الصلاة فسئل عن ذلك فقال: "ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها"[٦١].

نماذج الإشاري من تفسيره حيث يقول لقوله تعالى:﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[٦٢] هي النفس الحيوانية وذبحها قمع هواها الذي هو حياتها ومنبعها من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة.

وأيضا ذكر ابن عربي في تفسير قوله تعالى:﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ إلى قوله:﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[٦٣]من سورة الأنبياء﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾أي سخرنا لسليمان العقل العملي والمتمكن على عرش النفس في الصدر ريح الهوى ﴿عَاصِفَةً﴾في هبوبها﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾مطيعة له﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾أرض البدن المتدرب بالطاعة والأدب﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بتمييز الأخلاق والملكات الفاضلة والأعمال الصالحة ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾من أسباب الكمال﴿عَالِمِينَ﴾،﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ شياطين الوهم والتخييل﴿مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ في بحر الهيولي الجثمانية ويستخرجون درر المعاني الجزئية﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ من التركيب والتفصيل والمصنوعات وتهييج الدواعي المكسوبات وأمثالها﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ عن الزيغ والخطأ والتسويل الباطل والكذب﴿وَأَيُّوبَ﴾ النفس المطمئنة الممتحنة بأنواع البلاء في الرياضة البالغة كمال الزكاء في المجاهدة﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ ند شدة الك رب في الجد وبلوغ الطاقة والوسع في الجهد﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ من الضعف والانكسار والعجز﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ بالتوسعة والروح ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾

بروح الأحوال عن كد الأعمال عند كمال الطمأنينة ونزول السكينة﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ من ضر الرياضة بنور الهداية ونفسنا عنه ظلمة الكرب بإشراق نور القلب﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ القوى النفسية التي ملكناها وأمتناها بالرياضة بإحيائها بالحياة الحقيقة﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ من إمداد القوى الروحانية وأنوار الصفات القلبية ووفرناعليهم أسباب الفضائل الخلقية وأحوال العلوم النافعة الجزئية[٦٤].

٥- عرائس البيان فى حقائق القرأن

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبى النصر، البقلي، الشيرازي الصوفي،المتوفي سنة ٦٦٦ هـ ،وسارالشيرازي في تفسيره على منهج واحد وهو التفسير الإشارى، ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولاً، يدل على ذلك قوله في المقدمة: "ولما وجدتُ أن كلامه الأزلى لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه، لأن تحت كل حرف من حروفه بحراً من بحار الأسرار، ونهراً من أنهار الأنوار، لأنه وصف القديم، وكمال لا نهاية لذاته ولا نهاية لصفاته،قال الله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله﴾[٦٥]وقال:﴿قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[٦٦]فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التى تقصرعنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداءً بالأولياء، وأُسوة بالخلفاء، وسُنَّة للأصفياء، وصنَّفتُ في حقائق القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسِّرها المشايخ، ثم أردفتُ بعد قولى أقوال مشايخى مما عباراتها ألطف، وإشاراتها أظرف ببركاتهم، وتركتُ كثيراً منها ليكون كتابى أخف محملاً وأحسن تفصيلاً، واستخرتُ الله تعالى فى ذلك، واستعنتُ به، ليكون موافقاً لمراده، ومواطئاً لسُنَّة رسوله وأصحابه وأولياء أُمَّته، وهو حسبى وحسب كل ضعيف.. وسميته بـ "عرائس البيان في حقائق القرآن"[٦٧].

قد تعرض الأستاذ الذهبي على صاحب عرائس البيان ما قاله في مقدمته حيث يقول:"أنه يعترف بالمعانى الظاهرة للقرآن، ويقرر أن ما ذكره في كتابه ما هو إلا سوانح سنحت له من حقائق القرآن، وإشارات تجلَّت له من جانب الرحمن، كما ترى فيها وصفة لكتابه والمسلك الذي سلكه فيه، غير أنى ألحظ في قوله: "واستعنتُ به لمراده، ومواطئاً لسُنَّة رسوله" أنه يريد أن يقرر أن كل ما في كتابه من المعانى ليس إلا تفسيراً لكتاب الله وبياناً لمراده منه، وهذا هو ما لا نقره عليه، ولا نُسلِّمه له، لأن هذه المعاني الغريبة التي يأتي بها في تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللَّفظ القرآني، ولا يعقل أن تكون مرادة لله تعالى من خطابه لأفراد الأُمة، وحسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن[٦٨].

فترى بعض ما جاء في هذا التفسير

حيث يقول مؤلفه في تفسيرقوله تعالى:﴿لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾[٦٩]وصف الله زُمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين في المشاهدات، والمستغرقين في بحار الأزليات، الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر، وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حَرَج الامتحان، وأبقاهم في مجلس الأُنس ورياض الإيقان،وقال:﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعفآء﴾ يعنى الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة،﴿وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى﴾ الذين أمرضهم مرارة الصبابات،﴿وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد،﴿حَرَجٌ﴾عتاب من جهة العبودية والمجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقرهم من حسن الرضا[٧٠].

وأيضا ذكر البقلي الشيرازي في تفسير قوله تعالى:﴿وَتَفَقَّدَ الطير فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَىالْهُدْهُد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين.لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[٧١]،إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة، وكان قلبه غائباً في غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده. فتعجب من شأنه أين قلبه إن لم يكن معه؟ فظن أنه غائب عن الحق وكان في الحق غائباً، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم في الله، فقال:﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾لأُعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية، وألقينه فى بحر النكرة من المعرفة، ليفنى ثم يفنى عن الفناء، أو أذبحنه بسيق المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتينى من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل.....[٧٢].

وهذا التقسير مطبوع في جزءين، يضمهما مجلد كبير، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية،واليومنا طبع دارالكتب العلمية بيروت هذا التفسير بتحقيق الشيخ أحمد فريد المزيدي في ثلاثة أجزاء.

٦– تفسير النيسابوري

مؤلف هذا التفسيرهو الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوريّ، نظام الدين م ٨٥٠هكان مفسر، له اشتغال بالحكمة والرياضيات.أصله من بدلة (قم) ومنشأه وسكنه في نيسابور.له كتب، منها غرائب القرآن ورغائب الفرقان في ثلاثة مجلدات، يعرف بتفسير النيسابوري، ألفه سنة ٨٢٨ هـ[٧٣].

يمتاز هذا التفسيربسهولة عبارته وبتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق مع قصد وخلو من الحشو وقد عني بأمرين يلتزمهما الكلام على القراءات والأوقف في أول كل مرحلة من مراحل التفسير والكلام على التأويل الإشاري في آخر كل مرحلة من تلك المراحل وهومطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير وهو مختصر لتفسير الفخر الرازي مع تهذيب كبير[٧٤].

ومنهجه في تفسيره أنه بعد أن يوفي الكلام على ظاهر معنى الآية أو الآيات يقول قال أهل الإشارة أو يقول التأويل ثم يسوق المعنى الإشاري لتلك الآية أو الآيات تحت هذا العنوان، مثال ذلك أنه قال بعد التفسير الظاهر لقوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[٧٥] ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني وهو الجهاد الأكبر موتوا قبل أن تموتوا.

اقتلوني يا ثقاتي ... إن في قتلي حياتي

وحياتي في مماتي ... ومماتي في حياتي

مت بالإرادة تحي بالطبيعة وقال بعضهم مت بالطبيعة تحي بالحقيقة ما هي إنها بقرة نفس تصلح للذبح بسيف الصدق ﴿لا فَارِضٌ﴾ في سن الشيخوخة فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية كما قيل الصوفي بعد الأربعين بارد ﴿وَلا بِكْرٌ﴾ في سن شرخ الشباب يستهويه سكره عوان بين ذلك لقوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[٧٦].﴿بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرياضات ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ يريد أنها صفرة زين لا صفرة شين فإنها سيما الصالحين﴿لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ لاتحتمل ذلة الطمع ولا تثير بآلة الحرص أرض الدنيا لطلب زخارفها ومشتهياتها﴿وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ولا يسقى حرث الدنيا بماء وجهه عند الخلق وبماء وجاهته عند الخالق فيذهب ماؤه عند الحق وعند الخلق﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من آفات صفاتها ليس فيها علامة طلب غير الله ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بمقتضى الطبيعة لولا فضل الله وحسن توفيقه،[٧٧].

وقال في تأويل آية﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً﴾[٧٨]يعني القلب﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ فاختلفتم أنه كان من الشيطان أم من الدنيا أو من النفس الأمارة﴿فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها﴾ضرب لسان بقرة النفس المذبوحة بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر فحيي بإذن الله تعالى وقال:﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[٧٩]،﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ﴾[٨٠] مراتب القلوب في القسوة مختلفة، فالتي يتفجر منها الأنهار قلوب يظهر عليها الغليان أنوار الروح يترك اللذات والشهوات بعض الأشياء المشبهة بخرق العادات كما يكون لبعض الرهبانيين والهنود، والتي تشقق فيخرج منها الماء هي التي يظهر عليها في بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشرية من أنوار الروح فيريه بعض الآيات والمعاني المعقولة كما

يكون لبعض الحكماء، والتي تهبط من خشية الله ما يكون لبعض أهل الأديان والملل من قبول عكس أنوار الروح من وراء الحجب فيقع فيها الخوف والخشية، وهذه المراتب مشتركة بين المسلمين وغيرهم.

والفرق أنها في المسلمين مؤيدة بنور الإيمان فيزيدوا في قربهم وقبولهم ودرجاتهم، ولغيرهم ليست مؤيدة بالإيمان فيزيدوا في غرورهم وعجبهم وبعدهم واستدراجهم، والمسلمون مخصوصون بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلي أنوار الحق ورؤية برهانه.فإراءة الآيات للخواص ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾[٨١] ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٨٢]لكن إراءة البرهان لأخص الخواص كما في حق يوسف﴿لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾[٨٣]سئل الحسن بن منصور عن البرهان فقال:واردات ترد على القلوب فتعجز النفوس عن تكذيبها،والله أعلم[٨٤].

وأيضا ذكرالنيسابوري في تفسير قوله تعالى:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[٨٥] "مساجد الله التي يذكر فيها أساميها عند أهل النظر، النفس والقلب والروح، والسر والخفي وهو سرالسر وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك المسجد.فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات، وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة ومنع الذكر فيه بالتمسك بالشبهات والتعلق بالشهوات، كما أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك كل الشهوات فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عني محجوبة. وذكر مسجد الروح الشوق والمحبة ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمسكنات، وذكر مسجد السر المراقبة والشهود ومنع الذكر فيه بالركون إلى الكرامات والقربات، وذكر مسجد الخفي بذل الوجود ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات..."[٨٦].

فضلا على ذلك كثير من العلماء المفسرين الذين ألف كتب شهيرة في هذا المجال كتفسير لطائف الإشارات للقشيري، والتأويلات النجمية لنجم الدين الكبرى، وروح البيان لإسماعيل حقي البرسوي، وأنوارالفرقان في أسرارالقرآن لملاعلي القاري،وبحرالحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني للشيخ نجم الدين داية الذي قمت بتحقيق السورة الفاتحة والبقرة من هذا التفسير لنيل درجة الدكتورا تحت إشراف الإستاذ الدكتورالحافظ عبدالرحيم في جامعة بهاءالدين زكريا بملتان.

أرجوكم أن القارئ يلتمس الفكرة عن هذا المقال الموجز بسهولة ويسر.والله ولي التوفيق.....

الهوامش

١ - سورة طه:١٢٣

٢ - سورةالمائدة، ٥ :١٥-١٦

٣ - مجمع البيان للطبرسي:١/٢ .

٤- إحياء علوم الدين للغزالي: ١/٣٢٣.

٥- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٥٠.

٦- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٥١.

٧- المصدرنفسه.

٨- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٦١.

٩- مناهل العرفان للزرقاني ٢/٧٨.

١٠ - http://majles.alukah.net/showthread.php D:5-7-2013

١١- التفسيروالمفسرون للذهبي: ٢/٢٦١.

١٢- إحياءعلوم الدين للغزالي:١/١١٩.

١٣- سورة الطلاق، ٦٥ :٧.

١٤- سورة الطلاق، ٦٥ :٧.

١٥- سورة الطلاق، ٦٥ :٧.

١٦- سورة التوبة، ٩ :٦٠.

١٧ - http://majles.alukah.net/showthread.php D :5-7-2013

١٨- سورة النساء ، ٤: ٧٨.

١٩- سورة النساء، ٤ :٨٢.

٢٠- سورة محمد، ٤٧: ٢٤.

٢١- التفسير والمفسرون للذهبي:٢/٢٦٢،٢٦١ .

٢٢- التفسير والمفسرون للذهبي :٢/٢٦٢.

٢٣- المصدرالسابق.

٢٤- المصدرالسابق.

٢٥- سورة التوبة، ٩: ١٢٣.

٢٦- سورة نوح، ٧١ :١.

٢٧- سورة التوبة، ٩: ١٢٣.

٢٨ - http://majles.alukah.net/showthread.php D:5-7-2013

٢٩- التفسير والمفسرون للذهبي:٢/٢٧١-٢٧٢.

٣٠- http://majles.alukah.net/showthread.php D:5-7-2013

٣١ - سورة التوبة، ٩: ١٢٣

٣٢- البرهان في علوم القرآن:٢/٢١٥.

٣٣- سورة فصلت، ٤١ :٥٤.

٣٤- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٧٥.

٣٥- سورة فصلت، ٤١: ٣.

٣٦- سورة القمر، ٥٤: ١٧.

٣٧- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٧٨.

٣٨- سورة البقرة، ٢: ٢٥٥.

٣٩- سورة فصلت، ٤١ :٤٠.

٤٠- الإتقان للسيوطى:٤/٣٧٧ .

٤١- سورة العنكبوت، ٢٩ :٦٩.

٤٢- مناهل العرفان للزرقاني ٢/٨١.

٤٣- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٨٠.

٤٤- اتجاهات التفسيرفي القرن الرابع عشر:١/٣٧٥.

٤٥- سورة البقرة، ٢ :٢٦٠.

٤٦- سورة البقرة، ٢ :٢٦٠.

٤٧- مناهل العرفان للزرقاني:٢/٨٥-٨٦ .

٤٨- سورة البقرة، ٢ :٥٥.

٤٩- سورة البقرة، ٢ :٦٣.

٥٠- مناهل العرفان للزرقاني:٢/٨٤ .

٥١- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٨٤ .

٥٢- التفسيروالمفسرون للذهبي:٢/٢٨٦ .

٥٣- المصدرنفسه .

٥٤- سورة النساء، ٤: ٦٦.

٥٥- حقائق التفسير،ص:٤٩.

٥٦- سورة الحج، ٢٢ :٦٣.

٥٧- حقائق التفسير،ص:١٣٨.

٥٨ - سورة الرحمن، ٥٥ :١١.

٥٩- حقائق التفسير،ص:٣٤٤.

٦٠- أخرجه البغوي في"شرح السنة"برقم:١٢٢عن الحسن، باب الخصومة في القران.

٦١- مناهل العرفان للزرقاني:٢/٨٧ .

٦٢- سورة البقرة، ٢ :٦٧.

٦٣- سورة الأنبياء، ٢١ :٨١-٨٤.

٦٤- مناهل العرفان للزرقاني:٢/٨٨.

٦٥- سورة لقمان، ٣١: ٢٧.

٦٦- سورة الكهف، ١٨: ١٠٩.

٦٧- عرائس البيان:١/١٢-١٣.

٦٨- التفسيروالمفسرون:٢/٢٨٩.

٦٩- سورة التوبة، ٩ :٩١.

٧٠- عرائس البيان:٢/ ٣٧.

٧١- سورة النمل، ٢٧ :٢٠-٢١.

٧٢- عرائس البيان:٣/٦٣ .

٧٣- الأعلام للزركلي:٢/٢١٦.

٧٤- مناهل العرفان للزرقاني:٢/٦٨.

٧٥- سورة البقرة، ٢ :٦٧.

٧٦- سورة الأحقاف، ٤٦: ١٥.

٧٧- تفسيرالنيسابوري:١/٣١٤.

٧٨- سورة البقرة، ٢: ٧٢.

٧٩- سورة يوسف، ١٢ :٥٣.

٨٠- سورة البقرة، ٢: ٧٤.

٨١- سورة فصلت، ٤١: ٥٣.

٨٢- سورة البقرة، ٢: ٧٣.

٨٣- سورة يوسف، ١٢ : ٢٤.

٨٤- تفسيرالنيسابوري:١/٣١٥.

٨٥- سورة البقرة، ٢ :١١٤.

٨٦- تفسيرالنيسابوري:١/٣٨٠.

المصادر والمراجع

١- البقلي، أبي محمد صدرالدين روزبهان بن أبي نصر، عرائس البيان في حقائق القرآن، دارالكتب العلمية بيروت لبنان.

٢- الذهبي، محمد حسين، الدكتور، التفسيروالمفسرون، مكتبة وهبة القاهرة.

٣- الرومي، فهد بن عبدالرحمن بن سليمان، أ.د، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، إدارات البهوث العلمية السعودية، ط:١ ١٩٨٦م.

٤- الزركشي، بدرالدين محمد بن عبدالله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، دارإحياء الكتب العربية، ط:١ ١٩٥٧، بيروت لبنان.

٥- الزركلي،خيرالدين بن محمود بن محمد بن على بن فارس، الأعلام، دارالعلم للملايين، ط:١ بيروت.

٦- الزرقاني، محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط:٣ بيروت لبنان.

٧- السلمي، أبوعبدالرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي، حقائق التفسير، دارالكتب العلمية، بيروت .

٨- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة الكتاب.

٩- الطبرسي، أبوعلى الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مكتبة العلمية الإسلامية تهران.

١٠- الغزالي، أبو حامد محمد، إحياءعلوم الدين، دارالمعرفة بيروت.

١١- النيسابوري، الحسن بن محمد بن حسين القمي، غرائب القرآن ورغائب الفرقان دارالكتب العلمية، ط:١ ١٤١٦هـ، بيروت .